الرسالة السادسة

بيت الرشيد

لقد مضى عليَّ فى بغداد بعد العودة من خراسان نحوُ ستِ سنين ما زلت منقطعاً فيها إلى البرامكة حافظاً لمقامى فى الدولة تحت ظلهم وعنايتهم، وكنت أتردد فى خدمتهم إلى دور الرشيد وهو يأنس بى فى خَلَواته إلى أن صرتُ منه بالمنزلة التى لا يطمَح إليها غيرى من المقربين إليه، وكنت أقف على أمور بيته وأولاده، فرأيته (أكرمه الله) صالح السريرة شديد الاغراق فى الدين محافظاً على أداء الصلاة فى أوقاتها وشهود الصبح لأول وقتها، يصلى فى كل يوم وليلة مائة ركعة لا يتركها إلاّ لعلة،[1] وأذكر أنه لما حصل فى العام لَزْنَةٌ وغلاء سعر للناس واشتد عليهم الكرب اشتداداً عظيما أمرهم بكسر الملاهى وكثرة الدعاء والتوبة،[2] وذلك دليل على موقع العبادة عنده، ومظهر يروم منه تأييد الدولة باجلال الدين حتى يكون الاسلام مغتبطاً بمناحيه.

وإنْ كنتُ رأيت له فى تدبير المملكة ذلك التصرفَ الجميل فانى ما وجدته له فى تدبير أهل بيته ومواليه، وانما يرجع الرأى فى ذلك إلى زوجه أم جعفر، وهى أنفذُ نساء العباسيين كلمةً فى الدولة، وقد ربيت فى مِهاد الدَّعة والدلال كما يشير إليه اسمها، فانما سماها أبو جعفر جَدُّها بزبيدةَ لغضاضة بدنها، وقد كان يرقِّصها تهللا بها وإعجاباً بملاحتها، فسماها بزبيدة

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٧ والفخرى ٢٣٠ والمقدمة ١٥ (٢) المستطرف ١ : ٨٢

لذلك[١] فلما بنى بها الرشيد ووجدها طُرْفة حديث ومصدر رأى جميل لم ير بدًا من الانقياد إليها فى قضاء جميع ما ترومه من الحاجات[٢] ومن ذلك أنه مكّنها من بيوت المال فأنفقت من سَعَة ما يُنيفُ على ثلاثين ألف ألفِ دينار، فبنت مسجداً مباركا على ضَفّة دِجلة بمقرُبة من دور الخلافة يسمى بمسجد زبيدة، ومسجداً سامِيَ الحسن فى قطيعتها المعروفة بقطيعة أم جعفر[٣] بين باب خُراسان وشارع دار الرقيق،[٤] وحفرت بالحجاز العينَ المعروفة بعين المشاش[٥]، ومهدت الطريق لمائها فى كل خَفْض ورفع وسهل ووعر حتى أخرجتها من مسافة اثنى عشر ميلا إلى مكة، فبلغ ما أنفقته عليها ألفَ ألفِ دينار، وهذا من الأعمال التى لم تباشرها امرأة فى الاسلام إلاّ الخيزُران أم الرشيد فانها عَمرت كثيراً من المساجد[٦] أيضاً وبنت دار ابنُ يوسُف بمكة التى ولد فيها النبى صلى الله عليه وسلم مسجداً[٧] جزيل البركة، وتوافرت عندها الأموال حتى بلغ الذى خلّفته مع ما توسعت فيه من النفقة مائةَ ألفِ ألفِ درهم،[٨] فان لم يكن عند زبيدة من المال مايبلغ هذا القدر الجسيم فان لها فى السياسة رأياً تسمو به إلى التدخل فى أمور الدولة كأفطنِ مَنْ يكون من الرجال.

وقد صيّر الرشيد أمر بيته بعد زبيدة إلى مسرور خادمه العبد، وهو حاجبه وسيّد مواليه.[٩] وله فى قصور الخلافة دواوين تقيم فيها حوزتُه من

(١) الأغانى ٩ : ١٠٢ والشريشى ٢ : ٢٤٥ والحصرى ٣ : ٢٣٦ (٢) فى المسعودى أنها كانت من الرشيد بالمنزلة التى لا يتقدمها أحد من نظرائها ٢ : ٢٢٧
(٣) ياقوت ٤ : ٤٢١١ (٤) ابن خلكان ١ : ١٨٩ والمستطرف ١ : ٢٨٩
(٥) المسعودى ٢ : ٤٠٢ وابن جبير ١٧٣ والشريشى ٢ : ٢٤٥ (٦) ابن جبير ٢٧٦
(٧) المسعودى ١ : ٣٠٦ (٨) المسعودى ٢ : ٢٠٧ (٩) ابن خلدون ٣ : ٢٢٣

خدم وحرس وغلمان ، والكاتبُ له زياد بن أبى الخطاب[١] يقيم بمقربة من مجلس يوسُف بن القاسم صاحب ديوان الانشاء[٢] ومن قام بين يدى الرشيد حين أُخِذَت له البَيْعَةُ ، وفى ذلك دليل على مكان كُتّابه من الشرف وعلو المرتبة . ولا غروَ فان له من نفوذ الكلمة ماليس للأمراء والحكام مثلُه ، إذ كان سيدَ دور الخلافة والحارسَ لها لا يدخلها شيء ولا يخرج منها إلاّ باذنه ورضاه ، وكثيراً ما رأيت الملوك يتزلفون بالهدايا إليه ليخاطب الرشيد فى حاجاتهم ، إذ ليس فى أهل بيته من يتجرأ عليه سواه[٣] حتى كان إذا ركب الخليفة لا يجسُر أحد على سؤاله إلى أين يذهب غيرُه[٤] .

وإلى مسرور الأمرُ فيما يختص بالسراريّ والقيان وإنَّهن لكثير فى دار الرشيد يبلغن زُهاء ألفى جارية[٥] يرفلن فى أحسن زِىّ من كل نوع من أنواع الجواهر والوشى المذهَّب ، غير أنْ المقدَّم عليهن جميعاً ثلاث أهداهن إليه الفضل بن الربيع . سِحْر . وضياء . وخَنَث ذاتُ الخال .

أما حريم الخلافة فانه دوائر كبيرة لا اتصال لبعضها ببعض ولكل هاشمية من بنات الخلفاء دائرة منفردة عما سواها من الدوائر ، وأعظمُها دائرةُ أم جعفر ، لها قصر السلام كلُّه ، وهو أظرف القصور وأبهجها زينة وأجملها فى العيون والقلوب موقعاً يقول فيه إبراهيم النديم[٦] .

سُقِيتَ الغيثَ يا قصرَ السلام ... فنعم مَحَـــلَّةُ الملك الهمام
لقد نشر الأله عليك نوراً ... وخصّك بالسلامة والسلام

ثم دائرةُ أولاد المهدىّ ، ثم دائرةُ أولاد الهادى ، ثم دائرة أولاد الرشيد

---

(١) الأغانى ٤ : ٩٩ (٢) المحاضرة ٢ : ١٣٢ (٣) الاتليدى ٦ ٢
(٤) الأغانى ٩ : ٩١ (٥) الأغانى ٩ : ٨٨ (٦) الأغانى ٥٥ : ٨١

من غير زيـدة زوجه . ولهن جميعاً من الخدم والغلمان ما ينتهى إليه إسراف الملوك فى السَّعة ويتجلى به جمال السلطان بالبهـاء والاشراق . ولقد رأيت الجوارى من خدم الهاشميات يتقلبن فى أطيب العيش والنعيم ويتخذن العصائب مكللة بالجوهر اقتداء بعُلَيَّةَ أختِ الرشيد إذ كانت أول من اتخذ العصابة لعيب فى جبينها فسترته بها فكان ذلك أحسنَ ما ابتدعه النساء[١].

أما لباس الرشيد فهو لباس غيره من العباسـيين السوادُ لا يتأنق فيه إلاّ بما تقتضيه الرسوم المحفوظة ، وانمـا ينصرف همه إلى لذة المطعم بالتأنق فى صنوف الألوان ، وقد جلست إلى طعامه[٢] أكثرَ من مرة فى مجلس كامل الزينـة قد فرشه بالرُّخام الأخضر ولبَّس حيطانَه بالوشى المنسوج بالذهب[٣] فرأيته يفتَنُّ فى طعامه ولـكن على غير شره فى الأكل ، يبدأ بالمرق من السِكْباج وغيره تنشيطا لجسمه ، ثم يأكل الفاتر[٤] من الطعام من البقول وأشباهها ، ثم الدَّجاجَ وأنواع الطير ، ثم الشِّواء ثم أنواع السمك ثم ما يطبخ بالتوابل من اللحم والبقول وغيرها حتى تكاد مائدتهُ لا تخلو من السنبوسق[٥] ، وهى رقاق تحشى باللحم والدهن عليه التوابل من الفلفل والزنجبيل ثم تقلى بالزيت وتُطْرَف بالخردل ،[٦] وهو يتخلل طعامه بتناول اليسير من التوابل التى تُشَهِّيه إليه ،[٧] فاذا اكتفى منـه تناول الحلوى من الأسوقة والريكة واللوزينج والفالوذج أو غيرها ، ثم الفاكهةَ بعدها ، ثم

---

(١) الأغانى ٩ : ٨٣ (٢) ذكر الأغانى ٥ : ٢٤ أنه ما كان يجلس الى طعام الخليفة غير أمير وعالم (٣) ذكر الوشى المنسوج بالذهب الأغانى ٣ : ١٨٤ (٤) المسعودى ٢ : ٢٢٠ (٥) المسعودى ٢ : ٤٢٦ (٦) الاغانى ١ . ٣٩ (٧) يبتدئ بالطعام الحار وينتهى بأكل البوارد المسعودى ٢ : ٢٢٠

القُنْلَ[١] وهو الذى يتناوله بعد طعامه للتعلل ، ولكن فى الصِّحاف التى لم أرَ أظرفَ منها فى آنية الصين ولا أغلى ثمناً وقيمة ، فكنت أحسَب لشدة تأنقه فى فنون المطعم أنه لو لم ينه النبي صلى الله عليه وسلم عن الأكل فى صِحاف الذهب والفضة[٢] لاتخذها كذلك ونزَّل فيها اليواقيتَ والجواهر. فاذا اكتفى من التعلل جاءه الغلمان بماء الورد المسَّك[٣] فى قماقم الذهب مع شىء من الريحان فيغسِل يديه ويتبخر ، فاذا انتهى من الغَداء دخل مخدعه للقيلولة ،[٤] وإذا فرغ من العشاء جلس للمغنين والندماء . كذلك عادتُه من يوم وَلِىَ الخلافة .

أما أولاد الرشيد فكلهم مُتْرَف يتقلب فى النعمة والاسراف إلا أحمدَ[٥] فانه يحاول العُزْلة ويقعد مقعد ضُنأة ويتكسب بيده فيما يقولون شيئاً ينفقه على نفسه مع مقدُرة أبيه كلِّها ،[٦] أمّا القاسم فانه ذو كِبْر شديد ونعمة طائلة وبَذْخ زائد ، وإليه ينتهى جمال ولد الخلافة ،[٧] وكان أبوه قد طوّقه أمرَ الفِداء الذى وقع بين المسلمين والروم بُعَيْدَ عودتى من خراسان فجرى ذلك على يده[٨] وعُمُرُهُ يومئذ اثنتا عشرة سنة ، فتزاحم رَكْبُ الملوك على بابه ، ومكّنه أبوه من بيوت المال فهو اليوم يتخذ القصور المزخرفة ويشترى الجوارى[٩] والغلمان ، ويقيم المجالسَ للشعراء والمغنين والندماء ويُقطعهم الضياع ويصلهم بما يشاء من الهِبات[١٠] إلى أن يصيب

---

(١) المسعودى ٢ : ٢٢٠ والابشيهى ١ : ٨٤ (٢) الاتليدى ٩ (٣) الاتليدى ١١ (٤) الأغانى ٥ : ١١ والمستطرف ١ : ١٣٢ (٥) ولد له من سرية لبعض نسائه العقد الفريد ٣ : ٥٦ (٦) ابن خلكان ١ : ٥٧ (٧) الأغانى ٣ : ١٥٩ و ٩ : ٩٦ (٨) ابن الأثير ٦ : ٥٧ (٩) الأغانى ٣ : ٥٧ (١٠) ذكر الأغانى ٣ : ١٦٨ و ٤ : ١١٦ عطاء أولاد الخلفاء

بعضُهم فى ناحيته ما لا يصيبه من جوائز الخليفة من المال .

أما الأمين والمأمون وليّا العهد فانهما دونه فى الاسراف ولا سيما الأمينُ فانه يُوهِم أنه كثير العقل وإن كان ضعيفَه ،[١] ويتخذ الوقار برقعاً لوجهه لما يحدِّث به نفسَه من أمر الخلافة . ولأنه ابن هاشمى وهاشمية وذلك لم يتفق لغيره من خلفائهم ، فان أبا العباس وأبا جعفر والمهـدىَّ والهادىَ والرشيدَ كلَّهم أولاد سرارىّ [٢] وأما عبد الله المأمونُ فانه زينة أولاد الرشيد ، وسِمَتُه سِمَةُ خير وفضل وعفاف ، لم أر فى أبيه خَلَّة من الخلال المحمودة ولا خلقا من الأخلاق الرضية إلاّ وجدتُها فى نفسه طبيعةً تسمو به إلى أرفع مقام فى أدب الدنيا والدين ، ولم أرَ فى أولاد الملوك غيرَ البرامكة (أعزهم الله) من يتعشق العلوم الحكمية [٣] على حَداثة سنه ويقيم بين العلماء لمناظرتهم [٤] فى جميع أنواع العلوم مثلَه ، فما أذكر أنى دخلت عليه مرة إلا ولَقِيتُه فى مجلس من العلماء والأدباء وهو متوسط فيهم كالشمس من حولها الضياء .

ولقد قصدت بابه من عهد قريب مع أمير من البرامكة فألفيتا بحضرته [٥] جماعة من أئمة العلم ومنهم الخُزَيْمى والعباس بن زُفَرَ ومنصور النَّمَرى ، وهو السليم شِعْرُه من العيب لولا أن لهُ طعناً فى الشيِّعة يبتغى به مرضاةَ العباسيين ، ومحمد الراوية المسمى بالبَيْدَق لِقِصَره وهو المنشد للرشيد أشعار المُحْدَثين [٦] ، وفتى من أمراء آل نَوْبَخْت يقال له الفضل بن

---

(١) ابن الأثير والمسعودى والفخرى (٢) السيوطى (٣) المقدمة ١٨ (٤) الدميرى ١ : ٩٨ والمسعودى ٢ : ٤٠٢ والعقد الفريد ٣ : ٤٣ (٥) الأغانى ٢ : ٢٢ (٦) الأغانى ١٢ : ٢٠

سهل وهو خليل المأمون [١] وصديقه لا يصبر على فراقه فى نهار ولا ليل ، وإذا ركب فى موكبه أركبه معه على النجائب المخضوبة بالحناء وعليها القطوع والديباج ، [٢] وكان بجانب المأمون جماعة من النحاة قد أحدق به إحداق الهالة بالقمر ، منهم الكسائى وأبو محمد مؤدباه [٣] وهم يتباحثون معه فى مسائل نحوية وكنت أسمعه يقول لهم (زيدٌ) على الرفع والكسائى يقول بل (زيداً) منصوبةً بإنَّ فتطارح العلماء الجملة الإعرابية التى دار عليها كلامهم وهى « إنّ من خير القوم أو خيرهم نيّةً زيد » [٤] فأجمع رأيهم على موافقة المأمون فتحققت فضله فى ذلك اليوم وعرفت انه يدخل العلوم من أبوابها وليس تطفلا منه كما يتبادر إلى العقل عن آداب المترَفين من أولاد الملوك .

وكان هذا الأمير إذا جاس للاستراحةَ يَثْنِى انصبابَه إلى ما يجد فيه من التسلية أدباً وفائدة ، ولم يكن شىء من الملاهى أحبَّ إليه من لَعِب الشِّطْرَنج [٥] يمارسه كأبيه [٦] لاستنباط الحيل فيه ، حتى لم يكن فى الناس من يفضُله فيه وهو القائل فى الشِّطْرَنج [٧] .

أرض مربّعة حمراء من أَدَمٍ ... ما بين إلْفَيْنِ موصوفَيْن بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها شَبَهًا ... من غير أن يسعيا فيها بسفك دم
هذا يُغير على هذا وذاك على ... هذا يُغير وعينُ الحرب لم تنم

---

(١) ابن الأثير وذكره الوطواط ١٤٢ (٢) ذكر زينة المراكب هذه الأغانى ١ : ٨٨ (٣) الأغانى ١٨ : ٧٢ والمستطرف ٢ : ١٣ والمسعودى ٢ : ٢١٣ (٤) الأغانى ١٨ : ٧٧ (٥) العقد الفريد ٣ : ٢٥٤ (٦) لعب الرشيد بالشطرنج أمر معروف (٧) المستطرف ٢ : ٣٠٦ والمسعودى ٢ : ٤٠٦

فانظر إلى الخيل قد جاشت بمعركة فى عسكرين بلا طبل ولا علَم

وأما لَعبُه بالأكرة والطَبْطابة ورميه فى البُرْجاس النشّابَ . وكرّه بالصَّوالجة فى المَيْدان واقتناؤه ظرائفَ الطير والخيل[1] والحيوان . واتخاذه الديكَة ليقاتل بعضُها بعضاً والأكباشَ ليناطَحَ بها بين يديهِ إلى غير ذلك من ملاذِّ الملوك الذين يبلغون من الترف إلى أن يُعِدُّوا أمثالَ هذه الملاهى على سبيل المفاخرة والمباهاة ، فانه كان يتخذها لما يدعو إليه موضعه من الملك المُتْرَف وهو غير غافل عن اتخاذ الأشياء التى تعود عليه من وراء الزينة والمكاثرة بفوائد من الأدب والصناعة . فقد عُنِىَ بجمع آثار الملوك من ثياب وسلاح وآنية ومتاع وغير ذلك حتى جمع من طرائفها القدرَ العظيم الثمين . رأيت فى بعض مجموعاته صُنْدوقاً أودعه خواتم الخلفاء جميعاً من العباسيين والأمويين والخلفاء الراشدين ومن كان يقوم بدعوة الخوارج بعدهم

---

(١) من المعلوم أنه كان لأمراء العرب العناية التامة بتربية الخيل ووجدت فى العقد الفريد أن المأمون كان يتخذ خيلا يسابق بها خيل أبيه وأقاربه فى الحلبة قال فى الجزء الأول : ٦١ ركب الرشيد فى سنة ١٨٥ الى الميدان لشهود الحلبة قال الاصمعى فدخلت الميدان لشهودها فيمن شهد من خواص الخليفة والحلبة يومئذ أفراس للرشيد ولولديه الأمين والمأمون وسليمان بن جعفر ولعيسى بن جعفر فجاء فرس أدهم يقال له الريذ لهرون الرشيد سابقة فابتهج لذلك ابتهاجاً علم فى وجهه وقال على بالاصمعى فنوديت من كل جانب فأقبلت سريعاً حتى مثلت بين يديه فقال يا أصمعى خذ بناصية الريذ ثم صفه من قونسه الى سنبكه فانه يقال ان فيه عشرين اسما من أسماء الطير قلت نعم يا أمير المؤمنين وأنشدته شعراً جامعاً ما فيه من قول أبى حرزة . . . فأمر لى بألف درهم . وذكر المسعودى ٢ : ٢٢٠ أن الرشيد أجرى الخيل يوماً بالرقة وكان فى أوائلها سوابق من خيله يتقدمها فرسان فى عنان واحد لا يتقدم أحدهما صاحبه فتأملهما فقال فرسى والله وفرس ابنى المأمون

وفى صدر الدولتين ، فكان جامعاً لجميع خواتمهم[١] إلاّ خاتَمَ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يكن ضاع من عثمان فى بئر أريس كما تواتر فى الأنباء[٢] ما كفّ عن طلبه حتى يجده ، وفى هذا المجموع وأمثالِه من المجموعات أدبٌ مع الفكاهة والزينة . وهذا ما أذكره من فضائل هذا الأمير وليس هو إلاّ النزرَ اليسير فى جانب الكثير الواسع من فضله وأدبه .

جمال البرامكة وانفجارهم بالكرم

أما دور ملوكنا البرامكةِ (أعزهم الله) فانها فى الجانب الشرقى بازاء دور الخلافة ليس بينهما إلاّ عَرْض دِجلة ،[٣] وهى من الجمال والاشراق بمكان تُسامِى[٤] به قصور الرشيد ، لأنهم بَنَوْها على السَّعة التى لم يبلغها أحد من الملوك فقد أنفق جعفر بن يحيى على دار بناها عشرين ألفَ ألفِ[٥] درهم ، فهى مظهر الأنس والصفاء ، ومشرِق الأنوار والسناء . مغشّاةٌ بالرسوم والزخرفة من الداخل والخارج ، وعليها صور من الجِصّ المجسّم[٦] ، وقد فرشت مجالسها بالوشى والابْريسَم وزينت بالمتاع الثمين والقماقم الذهبية[٧] والجامات المنقوشة[٨] والقوارير الفرعونية[٩] ولطائف الصين

---

(١) فى العقد الفريد والمسعودى والمقريزى والخميس وابن الاثير ذكر كثير من خواتم الخلفاء وما كانوا ينقشون عليها (٢) أبو الفداء ١ : ٧٧ وابن جبير ١٩٩ وتقويم البلدان ٨٧ وغيرهم (٣) الفخرى والاتليدى ١٦٧ والقزوينى ٢١٠ (٤) الدميرى ٢ : ١٥٤ (٥) ابن الاثير ٦ : ٦٢ (٦) كانت العرب تعرفه كما فى المقدمة ٣٥٧ (٧) الكنز ٣٦ (٨) الأغانى ٣ : ٢٧ (٩) الأغانى ٦ : ١٣٠ و ١٠٣ !

وعيرها من التحف التى تأتيهم من الملوك فى سبيل المراضاة والاستمالة ،[١] ولُبِّسَت طيقانها بأستار من الديباج عليها أبيات مرسومة[٢] مما قالته الشعراء فى مدحهم ، وهى تأتيهم من مصنوعات الفرس ، لأن العرب لا يعملون الطراز منذ نهاهم عنه عبد الملك بنُ مروان ،[٣] ولا يكتبون على البسط والستور إلاّ كلاماً يُتَبَرَّك به ، بخلاف الفرس فانهم يزينون نسيجهم بالرسوم ويكتبون فيها ما يطيب لهم من الشعر أو يتبركون به من الآيات .

وقد اتصلت عمارة البرامكة فى حىّ لا يخالطهم فيه أحد ، وهى من السَّعة بحيث تنتهى من الجنوب إلى شارع المدينة ،[٤] ومن الشرق إلى دَرْب دينار الصغير ،[٥] ومن الشمال إلى باب الشمّاسية ،[٦] وهو الموضع الذى فيه قصر يحيى المعروفُ بقصر الطين ،[٧] المسمّى بذلك معارضةً لما أنفق عليه من الذهب واتخذ فيه من الزينة والزخرفة ، وفى جوارهم موضع يقال له البَرَدان .[٨] يشترون فيه الدور من الناس ويهبونها لمن هو طامع فيهم من أهل العلم والأدب ،[٩] لأنهم قد رفعوا بيوتهم على قواعد الكرم

---

(١) الفخرى ١٨٦ والمقدمة ١٤ وفى ابن الاثير ٦ : ٥٨ انهم كانوا من المنزلة الكبرى فى عيون الملوك بحيث أن خاقان ملك الخزر حمل ابنته الى الفضل بن يحيى تقرباً اليهم فى المصاهرة (٢) رسم الأبيات على الأستار مذكور فى الأغانى ٥ : ٨٦ و ١٠٠

(٣) الاتيدى ٢٧٢ (٤) ذكره الأغانى ٦ : ٧٨

(٥) ابن خلكان ٢ : ٣١١ (٦) الأغانى ٥ : ٨ وذكره المسعودى ٢ : ٣٨٥ وقال انه فى الجهة الشرقية تلقاء قطربل وذكر ابن الأثير ٦ : ٩٨ أنه نزل به جند المأمون يحاصر بغداد (٧) الأغانى ٥ : ٨ وياقوت ٤ : ١١٤ (٨) الأغانى ٥ : ٨ وذكر المسعودى هذا الوضع ٢ : ٢٦٧ (٩) الأغانى ٥ : ٧٢

والسماحة ، [١] وأصبحت أعطياتهم كأعظم ما يكون من أعطيات الملوك ، فان يحيى إذا ركب يُعِدُّ صُرَراً فى كل صرة مائتا درهم ، ويدفعها للمتعرضين له فى الأسواق والشوارع . [٢] وقد قالت الشعراء فى ذلك .

ياسمىّ الحصور يحيى أتيحت لك من فضل ربنا جنّتان
كلُّ من مرّ فى الطريق عليكم فله من نوالكم مائتـــان

أما وقوف الملوك والأمراء على أبوابهم فما لا تحضُرنى عبارة تفى بالافصاح عنه ، وانما للعين أن ترى ازدحام الخيل فى ساحات قصرهم واقفة بالخدم والحَفَد والغلمان مما ليس على باب الرشيد مثلُه ، وإنّ إقبالَ المؤملين عليهم من جميع الوجوه وأبعد الآفاق يمتطون إليهم رحالَ الرجاء ويستقون من موارد احسانهم ، نَهَلا وعَلَلا لأشهرُ من أن أحاول نعته بالوصف الذى لا يعبر عنه القلم ، فكأنما بيتهم محطّ الركاب يَضَعْن فيه المدائح ويحملن منه المال .

ولقد رأيت من الأعراب من قصد الفضل من قُضاعة فسأله عن حاجته فاستجداه عشرة آلاف درهم فاستقل ذلك له وقال له قد ازدريت بنا وبنفسك يا أخا العرب ، وإنما تُعطَى عشرة آلاف درهم فى عشرة ، فلما أخذ المال انصرف وهو يبكى فقال له الفضل مم بكاؤك أستقلالا للمال الذى أعطيناك ؟ قال لا ولكننى أبكى على مثلك تواريه الأرض ويأكله التراب وأنشد [٣] .

لعمرك ما الرزيّة فقدُ مال ولا فرس يموت ولا بعير

---

(١) الأغانى ٥ : ٧٢ والاتليدى والابشيهى والوطواط وأبو الفداء وابن خلدون والفخرى وابن نباتة وابن خلكان وغيرهم (٢) ابن خلكان ٢ : ٣٦٣ والفخرى ٢٤٠
(٣) الاتليدى

ولكنّ الرزية فقد حرّ يموت لموته خلق كثير

فنظر إلىّ الفضل بعد انصرافه وقال لى إنّ مثل هذا يقصدنا من البلد البعيد ليسترفدنا مرة واحدة فى زمانه فيقوم بحرمة الصنيعة ، ومن الأمراء من نغمُره باحساننا كلّ يوم [١] ثم يغمِط النعمة ويدِبُّ فيه مرض الحسد فيكون من أشد الناس بغضاً لنا وسعياً فى فساد ملكنا .

وقد انفجر البرامكة بالكرم [٢] حتى صار يضرب بهم المثل الأكبر فى سعة العطاء ، فيقال فلان من الملوك يتبرمك ، وقد أخبرنى الخازن القائم على بيت مالهم أنهم يُغِلّون فى كل سنة عشرين ألفَ ألفِ دينار [٣] فاذا انقضى الحول لا يبقى منها فى الخزائن دينار واحد ، فهم يتخذون الكرم قاعدة فى الحالين من نعيم الدنيا و بؤسها . يقول أبو الفضل [٤] (أيد الله ملكه) إذا أقبلت الدنيا فأنفق فانها لا تَفنَى وإذا أدبرت فأنفق فانها لا تَبْقَى .

وقال أبو نواس فى مدحهم [٥] .

إنّ البرامكة الكرام تعلموا فعل الجميل وعلموه الناسا
وإذا هُم صنعوا الصنائع فى الورى جعلوا لها طول البقاء أساسا

وقال فيهم نُصَيْب [٦] .

عند الملوك مَضَرَّةٌ ومنافع وأرى البرامك لا تضر وتنفع

---

(١) الفخرى ٢٤٠ والوطواط ٢٤٩ والعقد الفريد ٣ : ٣٤ والمستطرف ٢ : ١٩٢ والأغانى ٥ : ١١٩ (٢) الأغانى وابن خلدون وابن الأثير وأبو الفداء والمسعودى والعقد الفريد والمستطرف والاسحاق والاتليدى والفخرى والسيوطى وابن خلكان

(٣) العقد الفريد ٣ : ٢٨ (٤) الاتليدى فى كتاب اعلام الناس

٥) الأغانى ٥ : ١١١ و ٢٠ : ٣٤ والحصرى ١ : ٣٧٥ (٦) الأغانى ١٠ : ١٠٠

إنّ العروق إذا استسرّ بها الثرى ... أشِرَ النباتُ بها وطاب المزرع
فاذا جهلت من امرئ أعراقه ... وقديمَه فانظر إلى ما يصنع

وقال أبو النّضير البصرى :

إذا كنت من بغداد منقطع الثرى ... وجدت نسيم الجود من آل برمك

وقيل فيهم وهو منتهى المديح .

أتانا بنو الآمال من آل برمك ... فياطيبَ أخبار ويا حسنَ منظرَ
لهم رحلة فى كل عام إلى العدا ... وأخرى إلى البيت العتيق المستر
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت ... بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فتظلم بغداد وتمحو لنا الدجى ... بمكة ما تمحو ثلاثةُ أقمر
فما خلقت إلا لجودٍ أكفُّهم ... وأقدامُهم إلاّ لأعواد منبر
إذا راض يحيى الأمر ذلت صعابُه ... وناهيك من راع له ومدبّر

وقال سَلْم الخاسر فى يحيى [1] أعزه الله تعالى

يا أيها الملك الذى ... أضحى وهمته المعالى
أنت المنوَّه باسمه ... عند الملمات الثقال
لله درُّك من فتى ... كم فيك من كرم الخصالِ

وقال فيه أبو نصر [2] وأنا أستحسن البيتين وأرى لهما وقعاً لطيفاً فى القلوب .

نام الخَلِيُّون من همٍّ ومن سَقَم ... وبتّ من كثرة الأحزان لم أنم

(١) الوطواط ٢٤٩ (٢) الأغانى ٥ : ١٣ والاتليدى ٢٣٨

بل طالب الجود والمعروف مجتهداً اعمِد ليحيى حليفِ الجود والكرم

وقال فيه آخر (١)

سألت الندى هل أنت حر فقال لا ولكنّنى عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لا بل وراثةً توارثنى من والد بعد والد

وقال غيره (٢)

لا ترانى مصافحاً كفَّ يحيى إننى إن فعلت ضيعتُ مالى
لو يمسُّ البخيل راحة يحيى لسخت نفسه ببذل النوال

وقال غيره فى كرم الفضل (٣) رعاه الله تعالى .

حكى الفضلُ عن يحيى سماحةَ خالد فقامت به التقوى وقام به العدل
إليه يسير الناس شرقاً ومغرباً فُرادَى وأزواجاً كأنهم نحل

واعترضه وقتَ خروجه إلى خُراسان فتى من التجار كان قد شخص إلى الكوفة فقُطِع عليه الطريق واخِذَ جميعُ ما كان معه ، فأخذ بعِنان دابة الفضل وقال (٤)

سأرسل بيتاً ليس فى الشعر مثلُه يُقَطِّع أعناق البيوت الشوارد
أقام الندى والبأسُ فى كل منزل أقام به الفضلُ بنُ يحيى بنِ خالد

وقال آخر من شعراء البادية (٥)

قد كان آدمُ حين حان وفاتُه أوصاك وهو يجود بالحوْباء
ببنيه أن ترعاهمُ فرعيتَهم وكفَيْتَ آدمَ عيْلَة الأبناء

---

(١) أعلام الناس والعقد الفريد ١ : ١٠٠ (٢) الفخرى ٢٣٦ (٣) أعلام الناس
(٤) العقد الفريد ١ : ١١٩ (٥) ذكر فى العقد الفريد ١ : ١١٤ أن البيتين قيلا فى الحكم بن حنطب

وقال فيه أشجع السُلَمى الشاعر[١] .

وما قدّم الفضلَ بن يحيى مكانُه ... على غيره بل قدّمته المكارم
لقد أرهب الأعداء حتى كأنما ... على كل ثغر بالمنية قائم

وقال أبو النَّضْر البَصرى[٢]

ويَفْرَحُ بالمولود من آل برمك ... بغاةُ الندى والسيف والرمح والنصل
وتنبسط الآمال فيه لفضله ... ولا سيما إن كان من ولد الفضل

وقال غيره[٣].

ولائمة لامتك يا فضلُ فى الندى ... فقلت لها ما يقدَح اللوم فى البحر
أرادت لتثْنى الفضل عن سَنَن الندى ... ومن ذا الذى يَثْنى السحاب عن القَطْر
مواقع جود الفضل فى كل بلدة ... مواقعُ ماء المُزْن فى البلد القفر
كان وفود الناس لما تحملوا ... إلى الفضل لاَقوْا عنده ليلة القدر

وقال آخر[٤]

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة ... رأيت بها غيث السماحة يُنْبِتُ

وقال ابن الخياط المكى[٥]

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفه يُعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدتُ وأعدانى فأتلفتُ ماعندى

وذلك أن الفضل أمر له ذات يوم بخمسة آلاف درهم فاستأذنه فى

---

(١) الأغانى ١٧ : ٣٤ (٢) الأغانى ٥ : ١٤ و ١٠ : ١٠٠ (٣) أعلام الناس والعقد الفريد ١ : ٢٩٨

(٤) المستطرف ١ : ١٩٦ (٥) حلبة الكميت والوطواط ٢٥٠ والاغانى ١٨ : ٩٤ وهو يقول انه أنشدها فى المهدى

تقبيل يده فأذن له فلما انتهى إلى الباب حتى فرّق المال بأسره ، فعوتب على ذلك فقال البيتين المذكورين ، فبلغ ذلك الفضلَ فأعطاه عشرين ألف درهم . وقال بعضهم (١) وهو أمدح بيت فى الكرم.

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ... ترك الناس كلّهم شعراء

وقال مروان بن أبى حفصة فى جعفر وهو صبىّ (٢).

بَنَى لك خالد وأبوك يحيى ... بناء فى المكارم لن يُنالا
كأنّ البرمكى لكل مال ... تجود به يداه يفاد مالا

وقال فيه أيضاً (٣).

أفى كل يوم أنت صَبٌّ وليلةٍ ... إلى أم بَكْرٍ لا تُفيق فتَقْصِرُ
أُحِبُّ على الهجران اكناف بيتها ... فيالك من بيت يُحَبُّ ويهجَر
إلى جعفر سارت بنا كل حُرّةٍ ... طواها سراها نحوَه والتهجُّر
إلى واسع للمجتدين فناؤه ... تروح عطاياه عليهم وتَبْكُرُ

وقال فيه (٤).

لدولة جعفر حَمْدُ الزمان ... لِبابك كلَّ يوم مِهْرَجان
جعلتُ هديتى لك فيه وشياً ... وخير الوشى ما نَسَج اللسان

---

(١) ابن خلكان ١ : ٥٨٦ (٢) هما من بحر القصيدة التى رثى بها معنا ولم يثبه عليها أحد من أولاده وقد قالها فى مدح جعفر البرمكى وألحق بهما بعض أبيات . ومما قاله مروان فى هذه القصيدة فى ثناء معن

كان الشمس يوم أصيب معن ... من الاظلام ملبسة جلالا
هو الجبل الذى كانت معد ... تهد من العدو به الجبالا
أقنا باليمامة بعد معن ... مقاماً لا نريد به زيالا
وقلنا أين نرحل بعد معن ... وقد ذهب النوال فلا نوالا

وهى من جيد الشعر . الاغانى ١٨ : ١١٦ والحصرى ١ : ٣٧٧
(٣) الاغانى ٥ : ١٥ (٤) العقد الفريد ٣ : ٣٧٧ .

وقال العتّابى، وكان فى نفس الرشيد عليه مَوجِدة واستعطفه جعفر عليه، فقال فيه [١].

ما زلتُ لى غَمرات الموت مُطَّرَحاً ... قد ضاق عنى فسيح الأرض من حيلى
ولم تزل دائما تسعى بلطفك لى ... حتى اختلست حياتى من يدى أجلى

وقال فيه أشجع السُلَمى [٢].

يريد الملوك مدَى جعفر ... ولا يصنعون كما يصنع
تلوذ الملوك بأبوابه ... إذا نابها الحَدَث الأفظع

وقال فيه [٣].

ذهبت مكارم جعفر وفِعالُه ... فى الناس مثلَ مذاهب الشمس
ملك تسوس له المعالى نفسُه ... والعقلُ خيرُ سياسة النفس
فاذا تراءته الملوك تراجعوا ... جَهْرَ الكلام بمنطق هَمْس
ساد البرامكَ جعفرٌ وهم الأُلى ... بعد الخلائف سادةُ الإنس
ما ضرَّ من قصد بنَ يحيى راغباً ... بالسعد حلّ به أم النحس

إلى غير ذلك من الأشعار التى لو حاولت تقييدها فى هذا الكتاب لبلغتْ أكثرَ من عشرة آلاف بيت من الأبيات الجيدة ليس فيها بيت سخيف بارد. وقد وجدت للرَّقاشى [٤] وحده ديواناً يحوى أكثر من ألف بيت فى مديحهم، وهى من البلاغة بحيث إنّ البرامكة (أعزهم الله) يروُونها لأولادهم تفضيلا لها على شعر غيره من المُحْدَثين.

---

(١) الاغانى ١٢ : ٧ (٢) الاغانى ١٧ : ٣٤ (٣) الاغانى ١٧ : ٣٣
(٤) الاغانى ١٥ : ٣٥ ويظهر من كلام ابن الاثير ٦ : ٦٤ ان الرقاشى كان شاعر البرامكة.

الدولة فى خلافة الرشيد

نعود إلى ما نحن آخذون به من ذكر مملكة الرشيد وسياسته ، فقد سبق القول بأن دولته من أوسع دول الاسلام بل دول العالم رُقعةَ مملكة ، فانها تنبسط من الهند وفَرْغانة فى الصين إلى طرف المغرب الأقصى من ناحية الزُّقاق ، كذلك كان امتدادها فى أيام أبيه فيما عدَا البلدانَ التى غلب عليها الرومَ فى حروب متواترة قد استمرت بينه وبينهم على غير انقطاع كما كان شأن الخلفاء فى رفع السيوف عليهم منذ صدرِ الاسلام ، فان الدولة الأموية قد حملت عليهم المرّةَ بعد المرّة وحمّلتهم خسائر عظيمة من الرجال والمال ، وكذلك العباسية بعدهم قد ساقوا إليهم الجيوش ، ولم يزل أبو جعفر فى مغالبتهم حتى أذاقهم مرّ البلاء ، وكانوا مع ذلك لا يفتُرون عن الثورة ويأبَوْن إلاّ نكثَ العهود ونقض العقود المبرمة ، فلما وَلِىَ المهدىُّ أخرج إليهم الرشيدَ [١] وهو فتى بقيادة يحيى وزيرنا ، فركِب فى عُدّة وأُهْبَة لم يكن مثلُها فى الاسلام ، وتحركت فى نفسه نخوة الجهاد حتى اتَّسمَ بِسِمَة المحاربين فى الجيش ، وحمل الرمح فى يده . [٢] وكان على القسطنطينية ملكة يقال لها رينى لم تُطِق مقاومته ، فهزم جندها وتفرق المسلمون فى البسائط [٣] يُعفُّون الآثار ويبيحون الدِّمار ولا يبقون على أحد من الروم ، حتى إذا نزل بجوار القسطنطينية ونصب على أسوارها المَنْجَنيقات خافت عليها من الحريق فصالحته على كيليكية ، وحملت إليه الجزية التى كان يحملها

(١) أبو الفداء ٢ : ١٠ والخميس ٢ : ٣٣١ وابن الاثير (٢) الاغانى ١٧ : ٤٨
(٣) ابن الاثير ٦ : ٧٠

أسلافها إلى الخلفاء، وتلك أحسبها للروم من حيل السياسة فى إيجاد الهدنة بالجزية فيما بينهم وبين المسلمين، ففى نفسى أنه لو لم يتهاون الخلفاء فى أمرهم ما بقى لهم مُلْك تجاه دول الاسلام العظيمة.

ثم إنه بعد أن وَلِيَ الرشيد وقع فى نفوس الروم أن يتقاعدوا عن حمل الجزية إليه؟ فَعَبَّأَلهم العساكر وشحنها فى أسطول يسوقه حميد بن معيوب أمير الأساطيل بسواحل الشام،[1] وسيّر الفُرْسان من ناحية البر يحرقون المدن ويبُثُّون الخراب، ففتحوا وغنِموا[2] وأثخنوا وأوغلوا حتى انتَهوا إلى جوار القسطنطينية وأطافو بمعاقل الروم وأخذوا عليهم مهاربهم، فلما أدركت الملكة العجز عن دفاعهم، ورأت الجند بين يديها وهو شتيت، صالحتهم على الجزية وراحت تحملها الى بغداد وهى صاغرة الى انقضاء ملكها بعد أن نال المسلمون غنائمهم أعظم النيل واستشعروا من عزة الاسلام فى غزوتهم تلك ما أفاضوا فى التحدث به إلى هذا اليوم والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وتصدُر رايات الاسلام راويات.

ولما هلكت رِينى نصب الروم عليهم نَقْفور وكان ملكا شديد البأس إلاّ أنه قليل الخِبرة بامور السياسة غيرُ عارف بمكان الاسلام من الصولة والدولة، بل كان يظن فى المتمصرين من العرب فتورا فى العزيمة وتشاغلا عن أمر الجهاد بما ركنوا إليه من دَعَة العمران. فكتب إلى الرشيد فى مُنْتَصَف هذه السنة كتابا بنقض الهدنة التى كانت بينه وبين رينى يقول فيه « من نقفور ملكِ الروم إلى هرون ملك العرب. أما بعد

---

(١) ابو الفرج: وذكر امارة الاساطيل بسواحل الشام ومصر ابو الفداء ٢:١٩

(٢) نزل حميد بن معيوب قبرص وسبى من اهلها ستة عشر ألفا ابن الاثير ٦: ٧٠

فان الملكة التى كانت قبلُ كانت أقامتك مُقام الرُّخ وأقامت نفسها مُقام البَيْدَق ، فحملت إليك من أموالها أحمالا ، [١] وذلك لضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابى فاردُد ماحصل قِبَلَك من أموالها وإلا فالسيف بينى وبينك » فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضبا حتى لم يجسُر أحد أن ينظر إليه ، فدعا بدواة وكتب على ظهر كتابه « بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجوابُ ماتراه لاماتسمعه » [٢] ثم حشد الجنود ليومه ، وركب فى صفوف المترجلين والفُرْسان ، وحمل القواتِ والاقواتَ استظهارا على نفوذ العزيمة ، ولم يزل حتى وافى مدينة هِرَقْلَة [٣] ونصب عليها القتال ، وهى مدينة للروم لم يطمَع أحد من ملوك الاسلام فى الوصول إليها لحصونة مكانها ، فدكَّ أسوارها بالمَنْجَنِيق ومنحه الله أكتاف الروم فنَفَلَهم رقابَهم وأموالهَم وفى ذلك يقول الشاعر المكّى [٤]

هوت هرقلة لما أن رأت عجبا حوائما ترتمى بالنِّفْط والنار

كأن نيراننا فى جنب قلعتهم مُصَبَّغاتٌ على أرسان قَصَّار

وهذا كلام ضعيف ليّن ولكنّ قدرَه عظيم فى ذلك الموضع والوقت ، [٥] ولم تقف هزيمتهم على هرقلة فقط بل كانوا يسلّمون كثيرا من المعاقل

---

(١) فى تاريخ أبى الفداء انه قال فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافه اليها لكن ذلك من ضعف النساء وحمقهن الى آخر الكتاب (٢) الاغانى ١٧ : ٤٥ والطبرى وابن خلدون والسيوطى والمسعودى ١ : ١٥٨ وأبو الفداء ٢ : ١٨ (٣) ابو الفداء ٢ : ١٩ (٤) الاغانى ١٧ : ٤٧ والمسعودى (٥) الاغانى ١٧ : ٤٧

والبُلْدان ، فكان ذلك الفتح فتحاً عظيماً لا كفاء له . وهنأت الشعراء الرشيد . قال أبو العتاهية فى ذلك[1] .

قضى الله أن صفّى لهرون ملكه ... وكان قضاء الله فى الخلق مقضيا
تحيّبت الدنيا لهرون بالرضا ... وأصبح الغفور لهرون ذِمّيا

فلما ضاقت بهم الحيل ولم يكن لهم بالمسلمين قِبَلٌ رغبوا فى المسالمة والموادعة ، وأوجبوا على نفوسهم إعطاء الجزية وهم صاغرون . ولست أقول إنّ هذا الفوز كان سهلا على الرشيد فانه قد طوّح من الرجال وأنفق من الأموال ما هو حقيق بأن يُنْظَر فيه ، فان الروم أهل بأس ومراس شديد ، وهو يقاسى[2] معهم الحروب الصِّعاب ، ولم يكن فى شأنه معهم حيلة ولا سياسة ، وانما هى حروب تواصلت تِباعاً وأخذ بعضها برقاب بعض لما يروم من نفوذ السلطان حتى يركّب عليهم سيف الاسلام ، وإلاّ فانّ الجزية التى يُطْمَع فيها لا تفى بالقليل من الأموال التى تنفقها الدولة ، وهى بمكانها من المهاجمة ومكانِ الروم من المدافعة فى ظلال الأسوار ، وفى ذلك تفاوت بعيد فى خسائر القتال ، والذى يدلك على قوة الاسلام أنه غزاهم غزَوات كثيرة ما أخفق فى واحدة منها كما رأيت .

---

(١) المسعودى ١ : ١٥٨ (٢) ذكر الاغانى ١ : ٣٨ أن الرشيد قال للاصمعى عقب قدومه من بلاد الروم أنشدنى أحسن ما قيل فى رجل لوّحه السفر فأنشده قول عمر بن أبى ربيعة

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت ... فيضحى وأما بالعشى فيخصر
أما سفر جواب أرض تقاذفت ... به ذفرات فهو أشعث أغبر

وفى العقد الفريد ٣ : ١٧٨ تكملة هذه الابيات . وهى قصيدة مشهورة يستحسن الظرفاء طريقة نظمها لكن ربما وقع فيها تحريف من الناسخين .

هذا كان شأنَ الرشيد مع صُهْب السِّبال ، أما السياسةُ التى أتعبت خاطره فكانت منصرفة إلى اذلال العلويين فى المغرب قبل أن تسُود بهم الحال ، وتسودَ عندهم جموع الرجال . لأنه تعذر عليه محاربتهم مثلَ الروم لتجافى عظماء دولته من أهل الرأى والتدبير عن قتال المسلمين على غير فائدة إلاّ ضياع المال وضيعة الرجال ، ولذلك جعل الملك فى إفْريقيةَ لآل ابن الأغلب حتى يقاوموا جندَهم فلا يتمكنوا من إقامة مملكة تنهال من المغرب فتطمو على المشرق كله ، فكأنه وقع بين أمرين مخوفين فاختار ما هو أقرب إلى النجاة بأن يملِّك الأغالبة المغربَ حتى إذا قامت دولتهم رسخت فى مكانها ولم تتجاوز الرمال التى بين إفْريقيةَ ومصر .

على أن العلويين مع ذلك كلِّه قد ملكوا البلاد إلى طرف المغرب ، ولم يَألُ ابن الأغلب فى مناوأتهم جُهداً وهو لا يبلغ الغاية التى يرومها من إذلال مُلْكهم وتضييع نفوذهم فى المسلمين ، لأن جندهم مطيع لهم فيما استقروا فيه من تلك الأقاليم ، وكلُّهم صادق الحملة مدرّب على القتال ولا سيما قبائلُ صِنهاجة من بطون حِمْير ، (١) وهم آمنع الناس ذِماراً ، وأبعد الفُرْسان مُغاراً . وذلك أمر طيّب منى النفسَ لا بغضاً فى آل العباس لأنى لا أريد بهم مكروهاً ، وإنما العلويون هم أهل البيت الكريم وفيهم الأنجاب الذين تعرف البطحاء وطأتهم والبيت يعرفهم والحل والحرم (٢) كما يقول الفرزدق الشاعر فى مديحهم . فلعمرى إنهم أحقُّ من الأغالبة بهذا الملك الذى أراه اليوم يثبُت فى أيديهم إلى ما شاء الله من الزمان لاتجاههم إلى

---

(١) ذكرهم ابن خلكان ١ : ١٢٢ (٢) الأغانى ١٤ : ٨٧ والاتليدى ٥٤ والشبلنجى ١٧٠

غاية واحدة وسياسة راشدة ، فقد عرَفت أنّ تمزقهم فيما مضى إنما حصل بتفرق دُعاتهم على أغراض لم تجمع بينهم إلى الوحدة. وفيما تقدم من الكلام عن أبي جعفر ما يُبيِّن لك أنهم لو لم يفترقوا لظفِروا. أما اليوم فانهم مجتمعون إلى إدريسَ بن إدريس ، وله دون غيره من أهل البيت « السلامُ عليك يا ابن رسول الله »[١].

وانما سار العلويون إلى المغرب وأقروا فيه مملكتهم بايماز البرامكة الأمجاد ، وهم الآخذون بنـــاصرَهم والمتغرِّضون معهم[٢] والمقلِّدون الولايات لكثير من أهل الشيعة[٣] إلاّ أنهم لا يتعمدون فى ذلك ضرر الرشيد وهو المؤتمن لهم على مملكته ، لأنّ المغرب فيما يَرَوْن إذا انسلخ عن بغداد لا يحْدِث فى الخلافة ضرراً لعظم الممالك الاسلامية ، وإنما يضر التجزؤ بالدول اذا كانت الدولة منحصرة فى اقليم غير متسع إلى طَرَف العالَمَ وكان فى جوارها أمة ثانيـة متغلِّبة فانها تسطو عليها شيأ فشيأ إلى أن تلتهمها جملة واحدة ، كما رأينا فى سِيَر الأمم الماضية ، أما الخلافة الاسلامية فإنّ الجهاد فى الأعاجم يعمَل على استمرار ملكها ووقايته ، ويعود عليها من استقلال بعض الملوك فى أطرافها أنهم يمنعون عنها عدوها من قبل أن يصل اليها فتحفظ خزائنَها من إنفاق المال ، ورجالَها من تغرير القتال . وتبيت

---

(١) بن خرداذبه ٧٩ (٢) فى تاريخ أبى الفداء ٢ : ١٢ ان الرشيد لما جهز الفضل بن يحيى الى قتال يحيى بن عبد الله كتب اليه الفضل وبذل له الأمان وربما جعل الرشيد نفسه يحسن اليه ويكرم وفادته عليه وفى ذلك دليـل واضح على محبة البرامكة لاهل البيت . وذكر ابن الاثيران الفضل بن سهل الملقب بذى الرياستين كان يتشيع وان البرامكة هم الذين اختاروه لخدمة المأمون ٦ : ٧٠ (٣) المحاضرة ٢ : ٨

فى شئونها آمنة بحراستهم . اللهم إلا أن يكون فيهم من هو أشد سلطاناً ، وأكثر جنوداً وأعواناً ، وهذا بعيد عن أن يكون فى دولة متجزئة من الخلافة ، ولو انضمت جميعاً إلى قيادة واحدة ما ناوأت الرشيد وانتزعت الخلافة منه وهو بموضعه من عظم الشأن وضخامة الملك ، وله الهند والسند وأرمينية وكرمان ومصر والشام ونجد وتهامة واليمن والحجاز وفارس وخراسان ، فهذا معظم الدنيا المعمورة وأوفر بلادها ثروة وأطيبها تربة وغلة ، حتى لقد يجبى إليه من إقليم واحد من هذه الأقاليم كمصر مثلا ما لا يجبى إلى غيره من سائر أقاليم الأطراف .

فكان ملوكنا البرامكة (أعزهم الله) يرون أنّ قيام الدولة العلويّة فى المغرب داع إلى صلاح الرشيد ، وأنها تكون جنّاً للخلافة بما تجاهد لها فى ردّ الأمم النصرانية . وكان جعفر يقول لى إنه لو لم يكن للرشيد فى هذه البلاد النائية إلاّ قضاة حاكمون كما كان لملوك بنى أمية فى الأندلس ماظهروا على الفرنجة والجندُ بين أيديهم قليل ، ولو أنه ائتمنهم لاستنفدوا ماله ، أو استنصحهم لكانوا عليه لا له ، فيثبت بعد ذلك أن حبه وآل بيته للعلويين يعود بالمنفعة على الرشيد والمصلحة على جميع المسلمين ، لأنه إذا قامت دولتهم فى المغرب كان ذلك أثبت لبقاء الأندلس فى يد المسلمين .[1] وربما أعاد الله سبحانه على يدهم ما استعاده الفرنجة من البُلْدان التى فتحها طارق بن زياد والله يُبيد أمماً ويحيى أمماً لا إله إلاّ هو ذو الملك والسلطان .

---

(١) نذكر هنا أنه قامت فى المغرب بعد ذلك الوقت الدول العظيمة التى فتحت الفتوح وأعزت الاسلام

عمران بيت المال

لم يبق علينا لبيان عظم دولة الرشيد إلاّ أن نذكر قدر المال الذى يحمل إليه من جميع الممالك والبُلْدان ، فانه لم يُسْمَع عن دَخْل دولة من دول الخلفاء أنه تجاوز القدر الذى يحمل إلى بيت المال فى زمانه ، مع أنه يسلك مع الملوك مسلكَ الحلم ، ولا يضرِب عليهم الخراج إلاّ على قدر مَيْسَرتهم . وان كان قد زال عنه القليل مما يحمل إليه من المغرب فقد استعاض عنه بالكثير مما فرض على بُلْدان النصرانية التى غلب عليها الرومَ من الأموال التى لا يصح أخذها [١] من المسلمين كالخراج والعشور التى تؤخذ على جميع غَلاّتهم ، [٢] فقد بلغ المحمول إليه فى كل سنة نحواً من خَمْسمائة ألفِ ألفِ درهم من الفضة وعشرةِ آلافِ ألفِ دينار من الذهب ، ما عدا الغلالَ والمصنوعاتِ كما ستراه . فحمل الناسَ كثرةُ هذا المحمول على أن يعُدُّوه بالوزن لا بالعدد ، فيقولون إنه يبلغ ستة أو سبعة آلاف قنطار من الذهب ، [٣] إلاّ أن ذلك غلو وإفراط فى تعظيم الشىء ، فمن المعروف أن القنطار إنما هو زنة ثلاثين ألف دينار ؟ ويبعُد أن يكون فى العالم ألفا ألف ألف دينار من الذهب ، ولو جاز وجودها ما صحّ أن تُحمل كلُّها إلى بيت المال ولا يبقى منها شىء فى أيدى الناس لمعاملاتهم . وتقديرُهم هذا وان كان بعيداً عن الصحة يدلُّ على الكثرة وأنّ المال يحمل إلى بغداد بالصُّبَر [٤] لوفور الخير .

وعندى أن ما يحمل اليوم إلى بيت المال لم يكن يحمل نصفه إلى

(١) ابن جبير ٧٦ (٢) الزرقاوى (٣) مقدمة ابن خلدون (٤) القزوينى ١٠

خزائن الأمويين ولا الخلفاء الأولين من بنى العباس ، ولا يبعُدأنّ عمالهم كانوا يحجزُون من مال الجزية قدراً لا يحملونه إليهم لاختلاف تقدير الجزية على أهل الذمة بين ثمانية وأربعين درهماً تؤخذ من ذوى اليسار وأربعة وعشرين من الصنّاع وأهل الحرف واثنى عشر درهماً من ذوى الفاقة والاعسار [١] : دون أن يكون فى الدواوين عَمَلٌ لذلك . ولما قام وزيرنا [٢] : أيده الله بأعباء الدولة فرض على العمال ما هو مفروض على ناحيتهم من جزية وخراج وغير ذلك حتى صار يُقرَّر الدخل فى السجل من قبل أن يحصُل فى يديه ، فلم يبق سبيل إلى نقص الأموال إلاّ فيما يؤخذ من المكوس على السِّلَع وما يتصرف به العمال من نفقات [٣] ولاياتهم وليس هو إلاّ القليلَ فى جانب الكثير من دخل الدولة .

ولا يطرأ على تقدير هذه الأموال شىء من الزيادة والنقصان بتنقل البلاد من حال إلى حال . وربما غلبت عليها الزيادة لوفور الخير والعدل . فقد كان حاصل السواد وهو أرضُ [٤] ما بين المَوْصِل وعَبّادان فى الطول وما بين عُذَيْب بالقادسية إلى حُلْوان فى العَرْض عشرين ألف ألف درهم فى زمن الحَجّاج [٥] لكثرة الظلم ، فلما ارتفع عنها الجور ساد فيها العمران [٦] حتى صار يُحمل منها اليوم نحوُ ستين ألف ألف درهم . وكان حاصلُ فارس وأصبَهان وكَرْمان فى عهد الأمويين ثلاثين ألف ألف درهم فلما انتظمت فيها الأحكام وانتشر فيها العدل حمل منها البرامكة خمسة

---

(١) المقريزى والمستطرف ١ : ١٣٨ (٢) هو جعفر بن يحيى البرمكى
(٣) ذكره المقريزى ٢ ٩٧٠ (٤) الماوردى ١٩٩ (٥) المستطرف وابن خرداذبة ٣٦ (٦) المستطرف ١ : ١٢٥

وأربعين ألف ألف درهم . وكذلك عهد الخلفاء بخراج مصر « بعد ماجباها عمرو بن العاص فى زمن الخيراثنى عشر ألف ألف دينار »[١] تدلّى إلى ألف ألف وتسعمائة ألف دينار ، وذلك لاختلال أمرها وسوء سياسة العمال ، فلما تولاها البرامكة جبَوْا منها للرشيد ثلاثة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار ،[٢] واستمرت على ذلك إلى هذا اليوم .

ويُحمل إلى بغداد غيرَ هذه الأموال المقررة والغلال الكافية لارزاق الجند وعلَف خيلهم قدرٌ من المصنوعات والغلّات التى تكون فى البُلْدان فيحمل من السواد مائتا حُلّة من الحلل النَّجْرانية ومائتان وأربعون رطلا من طين الختم الأحمر الذى يطبع به على طرف الرسائل السلطانية ، ويحمل من الأهواز ثلاثون ألفَ رطل من السكر ، ومن فارس ثلاثون ألف قارورة من ماء الورد ، ومن أصبهان عشرون ألف رطل من الزيب الأسود . ومن مَكْران خَمْسمائة ثوب من المتاع اليمانى وعشرون ألف رطل من التمر ومائة رطل من الكمون . ومن السند مائة وخمسون رطلا من العود الهندى . ومن سجستان عشرون ألف رطل من السكر وثلثمائة ثوب ، ومن خُراسان ألفا نُقْرة من نِقار الفضة وأربعة آلاف بِرْذَوْن وألف رأس من الرقيق يُتَّخذون خدماً فى دور الخلافة ، ويكون لأمراء بنى هاشم وغيرهم من عظماء الدولة نصيب وافر منهم ، وعشرون ألف ثوب من المتاع وثلاثون ألف رطل من الإهْليلَج وألف وثلثمائة قطعة من صفائح الحديد ، ومن جُرْجان ألف شُقّة من الإبْرِيسَم .

---

(١) المقريزى ١ : ٩٨

ومن قُومَس خمسمائة نُقْرة من نقار الفضة . ومن طَبَرِسْتان ونهاوَند ستمائة قطعة من الفَرْش الطبرى ومائتا كُسْوة وخمسمائة ثوب وثلثمائة ألف منديل وثلثمائة جام . ومن الرَّىّ وقَزْوين عشرون ألف رطل من العسل ، ومن هَمَذان ألف رطل من رُبّ الرمان واثنا عشر الف رطل من التين ، ومن الموصل وما اليها وأعمال نِينَوَى عشرون ألف رطل من العسل الأبيض . ومن الجزيرة وأعمال الفرات ألف رأس من الرقيق واثنا عشر ألف زِقّ من العسل وعشرة بُزاة مُرَبّاة لصيد الملوك وعشرون كُسوة من الحرير للبيت الحرام ، ومن أَرْمِينِيَة قَدْر من البُسُط ومن قَنَّسْرِين والجُنْد ألف حمل من الزيت ، ومن جُنْد فِلَسْطين ودِمَشْق قدر كبير من الفاكهة اليابسة وثلثمائة ألف رطل من الزيت ، ومن إفْرِيقِيَة مائة وعشرون بساطا ، ومن اليمن شىء كثير من المتاع ، وكذلك من نجد وعُمان واليمامة والحجاز وكِنْكَوَر وحُلْوَان ومِهْرَان وشَهْرَ زُور وأذربيجان ومصر وجند الأُرْدُن يحمل كثير من الحبوب والمصنوعات التى تصرف على الجند وتنفق فى مصالح الدولة (١) .

وهذا المال كلُّه يتصرف فيه الخليفة دون أن يعارضه فيه أحد من أرباب الدولة إلاّ فيما يعرِضه عليه البرامكة من دفاتر الدواوين للموازنة بين دخل الدولة وخرجها . وقد تجمع كثيره فى بيت المال منذ صَدْرِ هذه الدولة حتى إن أبا جعفر (غفر الله له) لما أدركه الموت قال للمهدىّ فى وصيته إنه خلّف له من الأموال ما إنْ كُسِر عليه الخراج عشرسنين كفاه لأرزاق

---

(١) مأخوذ من مقدمة ابن خلدون ٢١٤ وكتاب قدامة ورسالة ابن خرداذبه

الجند ومصلحة البعوث وغير ذلك .[١] ولقد أخبرنى يحيى (أعزه الله) عن خالد أبيه وكان قائما على بيت ماله أنه بلغ ما خلّف من المال أربعة عشر ألف ألف دينار وستمائة ألف ألف درهم ،[٢] فلو لم يكن إلاّ هذا فى خزائن الرشيد [٣] لكفى دولته فخراً على دول الخلفاء ، وبهاء ليس مثلُه من بهاء . فأما الفخر فيكون لها من حيث المَنَعَة لأنه ما دام بيت مالها عامراً فلا تزال ممتنعة على العدوّ ، وأما البهاء فيأتيها من المال وإنفاقه فى الوجوه التى ترفع الدولة وفيما يدعو الملوك المترفين الذين يتوسعون فى نعيم العيش إلى تزيين دولهم برواج الأدب كما رأينا من إقبال الرشيد على تقريب العلماء اليه وانتفاعه بعلمهم فى دينه ودنياه .

مجلس الغناء بدار الرشيد

كان الرشيد يتخذ للعلماء والندماء والشعراء مجالس مناظرة وعرضِ أدب وصناعة كما كان يصنع أبوه (رحمه الله) ثم يجيزهم على موضعهم من العلم بما لا يكاد يُحْصى من الجوائز ، وإنّ الذى كنت أرتاح إلى شهوده من المجالس بداره اذا حضر وقته هو مجلس الغِناء ، على أنى لم أره فى السنين الماضية أحفلَ منه فى هذه السنة ، وكان الرشيد قد نشِط له وقام بِلُبْسَته التى يلبسها فى الصيف ، وهى غِلالة [٤] رقيقة يتوشح عليها بازار رشيدىّ عريض العَلَم مضرج ، وكان بين يديه جامات ذهب فيها دنانير [٥] يُجيز بها

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٧ (٢) المسعودى ٢ : ١٩٤ (٣) ذكر ابن الاثير ٦ : ٧٦ انه كان فى بيت المال لما توفى الرشيد تسعمائة ألف ألف ونيف (٤) ذكرها الأغانى ٥ : ٣٣ (٥) الأغانى ٩ : ٥٨

من يطيب منه المسموع وتصلُح عنده الصنيعة ، ومن حوله جماعة من بنى هاشم والفضلُ وجعفر من البرامكة (أعزهم الله) ، وهما جالسان بحانبه على سرير الخلافة .

ولما اجتمع المغنُّون جلسوا فى صفوفهم بناحيتين من المجلس للمناظرة[1] بينهم فى الغِناء . فمنهم المتعصِّبون للغناء القديم وهم جماعة إسحق النديم ، ومنهم المقصِّرون عن أدائه والمغيِّرون له وهم جماعة إبراهيم بن المهدى . وكان سبب هذا النزاع بين إبراهيم وإسحق أن إبراهيم تَغنى بلحْن قديم أضاع صناعته فرد عليه إسحق وعاب عليه تغييره فقال أنا مَلِك وابن ملك أغنّى كما أشتهى وعلى ما ألتذ ، فتخالفا فى ذلك فانضم إلى غرض إبراهيم إسماعيلُ بن جامع وفُلَيح بن العوراء ويحيى المكى وعمرو بن بانة وشارية وزِرْياب وبنو حمدون وحسين بن مُحرز والهذلى وغيرهم ، وبقِىَ مع الموصلى المترفِّعون عن الأغراض والآخذون بمحاسِن الغناء من حيث طرائقُ الصناعة مثل مخارق وعَلّويه وعَريب وبذل وسُلَيْم بن سلام ومحمد الرف وزبير بن دَحمان وأحمد بن يحيى المكىّ ومحمد بن حمزة بن الوصيف وغيرهم[2] وكان قوم إبراهيم بن المهدى قبل وزارة جعفر (رفع الله قدره) أكثرَ عدداً من حزب إسحق ، لأنهم كانوا يتقربون بكفَالته إلى الرشيد فلما أخذ البرامكة بناصر إسحق وجهَروا بتفضيله رجع الى غرضه كثير من المجيدين ، ولم يزل المغنون فى أهل البيوتات مثلِ البرامكة وآل هاشم وآل الربيع يتمسكون بالغناء القديم ويحملونه كما يسمعونه ، فلم يكن من مفسد له إلاّ الذين تقدّمت

(١) ذكر هذه المناظرة الأغانى ٥ : ٢٦ بين الموصلى وابن جامع

(٢) من كتاب الأغانى

أسماؤهم وجماعةٌ من أولاد العباسيين مثل ابراهيم وأخيه يعقوب وإختهما عُلية وعبد الله بن الهادى وعيسى بن الرشيد وغيرهم[١] ممن يترفعون عن أنْ يُقيِّد غناؤهم بالمحفوظ من أصوات المتقدمين وان كانوا بموضع جليل من هذه الصناعة . فهذا إبراهيم ليس فى الناس أعلمُ منه بالنغم والوتر والايقاعات ولا أطبعُ على الغناء . ولقد رأيته إذا غنّى بمجلس الرشيد قَرُب كل من فى دور الخلافة من أقرب موضع يمكنهم أن يسمعوه فيه لحسن صوته ، وقليلا ما كانوا يسمعونه إذ كان لا يغنى إلاّ على حال تَصوُّنٍ عن الغناء وَتَرَفُّع إلاّ أن يدعوَه إليه الرشيد فى خَلْوة أو إذا كان عنده جعفر فيقول له أحبُّ أن تُشَرِّف جعفراً[٢] بأن تغنيه صوتاً فيغنّى . ولقد كنت ذات يوم فى خدمة أميرنا (أعزه الله) فغنى ابراهيم على أبيات لمروان بن أبى حَفْصة يقول فيها[٣] :

طرقتك زائرةٌ فَحَىَّ خيالَها زهراء تخلِط بالجمال دلالَها

---

(١) أنظر أخبار من غنى من أولاد الخلفاء فى الكتاب التاسع من الأغانى

(٢) كذا فى كتاب الأغانى وربما قال الخليفة هذه الكلمات تحبباً لأخيه وهى ، لاتنقص من قدر جعفر شيئا فقد ذكر ، صاحب العقد ١ : ١٠٠ أن منزلته كانت عظيمة حتى اذا دعا ابراهيم بن المهدى لجعفر قال له ابراهيم جعلنى الله فداءك انما أسعد بمساعدتك وآنس بمخالاتك وأعاد القصة نفسها فى الكتاب الثالث صحيفة ٣٤ وذكر فى الكتاب الأول صحيفة ١٦٧ أنه لما زار جعفر سليمان صاحب بيت الحكومة قبل سليمان يده وقال له بأبى أنت ما دعاك الى أن تحمل عبدك هذه المنة التى لا أقوم بشكرها ولا أقدر أن أكافئ عليها . وذكر صاحب مروج الذهب ٢ : ٢٢٧ عن مسايرة الرشيد لجعفر انه كان اذا انصرف من مجلسه خرج الرشيد حتى يركب مشيعاً له

(٣) الأغانى ٩ : ٧٢ والاتليدى ٢٨٧

هل تطمِسون من السماء نجومَها بأكفِّكم أو تستُرون هلالَها
أو تدفعون مقالةً من ربكم جبريلُ بلّغها النبيَّ فقالها

فلما بلغ قوله «جبريل بلغها النبي فقالها» هزَّ حلقه فيه ورجّعه ترجيعاً زُلْزِلَتِ الأرض منه ، فما أظن أحداً يقدر على أداء الأصوات مثلَه الا اسحقَ المخالفَ له على هواه والمقرَّ بما له من جميل الصناعة لولا أنه أفسد الغناء القديم وجعل للناس طريقاً الى الجسارة على تغييره .

وأول من غنى فى ذلك اليوم ابراهيم أبو اسحق وكان ذلك باشارة مسرور العبد اذ كان أمرُ المغنين مفوضاً اليه ،[1] واذا أحبَّ الرشيد أن يسمع صوتاً[2] أشار اليه فأشار هو الى المغنين فغنى إبراهيم .

ولى كبد مقروحة من يبيعنى بها كبداً ليست بذات قُروح
أباها علىّ الناسُ لا يشترونها ومن يشترى ذا علة بصحيح

واللحن فيه ماخورى[3] لا يعرفه أحد مثله . ثم غنّى على أبيات قالها فى بعض قُرَى الرَّىّ

أنا فى الرىّ مقيمُ فى قُرَى الرىّ أهيمُ
ربما نبّهنى الإخـــوانُ والليلُ بهيمُ
حين غارت وتدلّت فى مهاويها النجومُ
للتى تُعْصَرُ لمّا أينعت منها الكُرُوم

ولحنُها من الثقيل الأول باطلاق الوتر فى مَجْرى البِنْصَر[4] ثم غنّ

ألا يا اسلمى يادارَ مىَّ على البِلى ولا زال مُنْهَلاً بجَرْعائك القَطْر

---

(١) الأغانى ٦ : ٧٤ والمسعودى ٢ : ٢١٩ (٢) العقد الفريد ٣ : ٢٤٢
(٣) الأغانى ٥ : ٣٦ (٤) الأغانى ١ : ٢

الشعرُ لذى الرُّمة والغناء له بلحن خفيف الثقيل الثانى [١]. ثم غنى

وقفتُ على ربع لميةَ ناقتى ... فما زلت أبكى عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبثُّه ... تكلمنى أحجاره وملاعبه

الشعر لذى الرُّمة أيضاً والغناء ثانى ثقيل مطلق فى مجرى البنصر، [٢] فأجاد إبراهيم حتى كأنَّ كل ما فى المجلس يجيبه ويردد الصوت معه لحسن غنائه، فطرِب الرشيد حتى كان يقوم ويقعد ولا سيما من اللحنين اللذين سمعهما فى شعر ذى الرمة لأنه كان يحفظ أبياته كلَّها فى صباه، فكان إذا غنِّىَ فيها صوت أعجبه أكثرَ من جميع الأصوات التى يصنعها المغنون فيما لا يحفظه من الشعر، ففَطَنَ إبراهيم لذلك وطلب إليه أن يُقْطِعَه شعرَ ذى الرُّمة ويحظُر على غيره من المغنين أن يداخلوه فيه فأجابه إلى ذلك فأصاب إبراهيم عليه من الجوائز ما يتجاوز التقدير [٣].

ثم أشار مسرور إلى إسماعيل بن جامع القرشى وهو من المتعصبين على إسحق فغنى.

لم تمش ميلا ولم تركب على قتب ... ولم تر الشمس إلاّ دونها الكِلَلُ
تمشى الهُوَيْنى كأنّ الريح تَرْجِعُها ... مشىَ اليعافير فى جيئاتها الوَهَلُ

الشعر للأعشى [٤] والغناء الأول لابن فيه سُرَيْج بلحن الرَّمَل بالبنصر [٥] ثم غنى بلحن خفيف الثقيل الأول بالوُسْطَى [٦] على أبيات عمر بن أبى ربيعة.

---

(١) الأغانى ٥ : ٣٩ (٢) الاغانى ١٦ : ١١٦ (٣) الأغانى فى الكتاب الخامس (٤) العقد الفريد ٣ : ١٧٣ (٥) الأغانى ٦ : ٨٢
(٦) الأغانى ٦ : ٨٢

كأنّ أحور من غزلان ذى بقر ... أعارها شَبَهَ العينين والجيدا
أجرى على موعد منها فتُخْلِفُنِى ... فما أمَلٌ ولا توفى المواعيدا
كأنّنى حين أمسى لا تكلمنى ... ذو بُغْيَة يبتغى ما ليس موجودا

ثم غنى بلحن الهزَج بالوُسْطَى[1] على هذين البيتين

شكونا إلى أحبابنا طولَ ليلنا ... فقالوا لنا ما أقصرَ الليلَ عندنا
وذاك لأن النوم يَغْشَى عيونهم ... سِراعاً وما يغشَى لنا النومُ أعينا

فأجاد إجادة يرتاح إليها أهل الطرب[2] ممن يحب الخلاعة فى الأصوات، فهو يميل إلى ظَرْف الغناء والنَّغَم الكثيرِ العملِ[3] كما يميل إلى ظَرْف المعاشرة والافتنان فى خلاعة الملبَس[4]

ثم أشار صاحب الستارة إلى إسحق بن إبراهيم صاحبِ هذا الفن فجاءه غلام من غلمان الدار بعود هندىّ[5] كان مودعاً له فى خِزانة المجلس[6] قد أُصْلِحَت أوتارُه قبل ذلك الوقت، لأن العيدان لا تُصْلَح فى مجالس الملوك،[7] فضرب عليه نغماتٍ صاح لأجلها القوم جميعاً ثم غنى

قل لمن صدَّ عاتبا ... ونأى عنك جانبا
قد بلغتَ الذى أرد ... تَ وإن كنت لاعبا

الشعر والغناء له ولحنُه من الثقيل الثانى بالسبابة فى مجرَى الوُسْطَى،[8]

---

(١) الاغانى ٦ : ٧٧ و ٨٢ (٢) المستطرف ٢ : ١٨٨ والاغانى ٤ : ٩٨ و ٦ : ٦٥ (٣) ذكر ابن جامع هذا صاحب العقد الفريد ٣ : ٢٣٩ وقال أنه أحلى المغنين نغمة (٤) الاغانى ٦ : ٩٦ (٥) ذكر العود الهندى الاتليدى ١٣٠
(٦) الاغانى ٥ : ١٠٩ (٧) الاغانى ٥ : ٥٨ (٨) الاغانى ٥ : ٧٥ و ١٢٦ و ٩ : ٥٤ و ٥٧ والشريشى ١ : ٣١٢

ثم غنى بلحن وضعه مَعْبَد فى أبيات لأبى صخر الهُذَلِىّ .[١] وهى

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فيا حبَّها زدنى جوًى كلَّ ليلة ... ويا سَلْوةَ الأيام موعدُك الحَشْر
وإنى لتعرونى لذكراك هِزَّةٌ ... كما انتفض العُصْفور بلّله القَطْر
هجرتُك حتى قيل لا يعرفُ الهوى ... وزرتُك حتى قيل ليس له صبر

فطرب الرشيد وقال له زدنا يا أبا صفوانَ من غنائك ، وأبو صفوان كنية يلقبهُ بها عند التحبُّب ،[٢] فغنى بهذين البيتين .

الطلول الدوارسُ ... فارقتها الأوانس
أُوحِشَتْ بعد أهلها ... فهى قَفْر بَسابس

غناء لم أجد أحسنَ منه موقعاً فى القلوب ، وكنت فى ذلك الوقت جالساً بمقرُبة من أبيه فقال « لو لم يكن من بدائع إسحق غيرُ هذا لكفى ». « الطلول الدوارس » كلمتان و « فارقتها الأوانس » كلمتان أيضاً وقد غنى فيهما استهلالا وصاح وسجَع ورجَّع النغمة واستوفى ذلك كله فى أربع كلمات وأتى بالباقى مثله . فمن شاء فليفعلْ مثلَ هذا أو ليقاربْه » . ثم قال « والله ما فى زماننا فوق ابن سُرَيْج والغَرِيض ومَعْبَد ، ولو عاشوا حتى رأَوْه لعرفوا فضله واعترفوا له »[٣] والغناء لاسحق خفيف ثقيلٌ بالبِنْصر . ثم وجد فى نفس الرشيد إقبالا عليه وطرباً من صناعته فغنى لحناً صنعه فى شعر للمنخَّل اليَشْكُرِىّ يقوله فى بعض بنات الملوك المناذرة[٤]

---

(١) الاغانى ٥ : ١٦ والوطواط ٩٠ والاتليدى ١٤٣ (٢) الأغانى ٥ : ٥٢
(٣) الأغانى ٥ : ٨٧ و ١٢٨ (٤) الأغانى ٩ : ١٦٦ و ١٨ : ١٥٢

ولقد دخلتُ على الفتا ةِ الخِدْرَ فى اليومِ المطير
فدفعتُها فتدافعت مشىَ القَطاةِ إلى الغدير
فلثمتها فتنفست كتنفس الظبى الغرير

فأجاد فى الغناء إلى ما وراء الغاية ، وقال الرشيد وقد كاد يخرج من ثيابه لشدة الطرب « والله ما الغناء الذى يُلين العريكة ويُفسح فى الرأى والصدر ويُحدث فى النفس طرباً إلاّ غناء هذا الرجل » .

ثم أشير الى فُلَيْح بن أبى العوراء فغنى على لحن صنعه فى بيتين لعَدِىّ ابن الرِّقاع العاملىّ[١]

وكأنّها بين النساء أعارها عينيه أحْوَرُ من جآذِرِ جاسِمِ
وَسْنانُ أقعده النُّعاس فرنقت فى عينه سِنَةٌ وليس بنائم

ثم أتبعه بلحن من الثقيل الأول باطلاق الوتر فى مجرى البِنْصر صنعه[٢] فى بيتين للمؤمَّل من شعراء الدولة الأموية .

ألا يا ظبيةَ البلد برانى طولُ ذا الكمد
فردّى يا معذبتى فؤادى أوخذى جسدى[٣]

وهو يعارض فيه اللحن الذى صنعه أبو اسحق فأجاد ولكنه قصَّر عن أن ينحو نحو صناعة المَوْصِلىّ ، وإن كان قد مضى فى بعض كتبى السالفة ما يشهد لموضعه الجليل من هذه الصناعة ،[٤] إلاّ أنه قد وجد اليومَ من

---

(١) المستطرف والشريشى ٢ : ٢٨٠ (٢) الأغانى ١٩ : ١٤٧
(٣) فى قول الشيخ ابن الفارض
أخذتم فؤادى وهو بعضى فما الذى يضركم لو كان عندكم الكل
التفات الى هذا البيت (٤) ذكر مثل هذا الأغانى ٤ : ٩٨ و ٩٩

برَعه وبرَع الناس كلَّهم[١] فى طيب المسموع ومحاسن الصنعة .

ثم أشير إلى مُخارق[٢] من حزب إسحق ، وهو طيِّب الصوت يُعَدّ هو وإبراهيم بن المهدىّ وابن جامع وعمر بن أبى الكَنّات من أحسن الناس صوتاً[٣] فغنى بصوت رخيم .

يا ربعَ سَلْمَى لقد هيجت لى طربا زدت الفؤاد على عِلاَّته وَصَبا

فكنت أحسَب أن الدنيا قد صارت أحزاناً[٤] لِما ألمَّ فى غنائه من إبراز معنى البيت وما وراءه من توجع العاشقين ، ثم غنى .

إنى استحيتُكِ أن أفوه بحاجتى فاذا قرأتِ صحيفتى فتفهَّمى[٥]

وعليك عهدُ الله إن أخبرتُهُ أحداً وإن أظهرتُهُ بتكلم

الشعر لابن هَرْمة والغناء لعبادل من مُغَنِّى الحجاز ، ثم غنى .

فبتُّ فيما شئتُ من نعمة يمنحنيها نحرُها والفمُ

حتى إذا الصبح بدا ضوءه وغارت الجَوْزاء والمُرْزم

خرجت والوطءُ خفىٌّ كما ينساب من مكمَنِه الأرْقَم

الشعر لاسمعيل بن يسار والغناء له بلحن الرَّمَل[٦]

ثم غنى يحيى المكىّ بلحن صنعه فى بيتين لمحمد بن أميّة من كتّاب إبراهيم بن المهدى[٧]

أحبُّك حباً لو يفَضُّ يسيرُه على الناس مات الناس من شدّةِ الحب

---

(١) الأغانى وابن خلكان والاتليدى وحلبة الكميت ١ : ١١ بضم الميم (٢) ضبطه ابن خلكان

(٣) الأغانى ٩ : ٣٥ (٤) الأغانى ٢ : ١٨٩

(٥) الشعر مذكور فى الحصرى ٣ : ١٨٣ (٦) الأغانى ٤ : ١٢٣

(٧) الأغانى ١١ : ٢٤

وأعلم أنى بعـــد ذاك مُقَصِّر لأنك فى أعلى المراتب من قلبى

ثم غنى بلحن خفيف الرَّمَل[1]

طرقتْكَ زينبُ والمَزارُ بعيد بِمِنًى ونحن مُعرِّسون هُجود

فكأنما طرقتْ بريا روضةٍ أُنُفٍ تُسَحْسِحُ مُزْنُها وتجود

فكان لحنه كثير العمل حلو النغم صحيح القسمة محكم الصنعة ولولا ذلك ما أطرب الناس غناؤه وهو شيخ مُسِنٌّ

ثم غنى سليم بن سلام من جماعة إسحق[2]

أفاطمُ مهلاً بعضَ هذا التدلُّل وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمى فأجْملى

أغرَّكِ منى أنّ حبَـك قاتـلى وأنَّك مهما تأمرى القلبَ يفعلِ

ثم غنى[3]

أتيتكِ عائذاً بكِ منـــك لما ضاقت الحيل

وصيّرنى هواكِ وبى لَحَيْنِى يُضْرَب المثـل

فان سلمت لكم نفسى فما لا قيتُه جَلَل

وإن قتل الهوى رجلا فانى ذلك الرجـل

الشعر لمحمد بن أبى محمد اليزيدىّ ويُكْنَى أبا عبد الله ، والغناء له ثقيل أول بالبِنْصَر إلى أن قال .

وقفت على ربع لسَلْمَى وعَبْرتى تَرَقْرَقُ فى العينين ثم تسيل

أسائل رَبْعاً قد تعفَّت رُسومه عليه لأصناف الرياح ذُيول

واللحن له هزج خفيف بالسبابة ،[4] فطرب الرشيد وقال لو كنتَ

---

(١) الأغانى ٦ : ٢١ (٢) ذكر المسعودى ٢ : ٢٩٦ غناء بهذين البيتين

(٣) الأغانى ١٨ : ٨٣ (٤) الاغانى ٦ : ١٢

ـكَمَ الوادى ما زدت على هذا الاحسان فى هزجك [١].

ثم غنى حسين بن مُحْرِز لحن صنعه يحيى [٢] المقدَّمُ ذكرهُ فى هذين البيتين .

هل هيجتك مغانى الحى والدورُ ... فاشتقت إن الغريب الدار معذور

وهل يَحُلّ بنا إذ عيشنا أنِقٌ ... بِيضٌ أوانسُ أمثالُ الدُّمَى حُور

ثم غنى .

خمس دَسَسْن إلىّ فى لطف ... حُورُ العيون نواعمٌ زُهْرُ

فطرقتهن مع الجرىِّ وقد ... نام الرقيب وحلَّق النَّسْر

الشعر للاحْوَص والغناء لمَعْبَد رَمَلٌ بالسبابة فى مجرى البِنْصَر ، [٣] فأجاد لكنه لم تظهر له صناعة يسمو بها إلى مقامات المتقدمين فى الغناء ، وكذلك جميعُ من غنى بعده فى ذلك اليوم إلاّ الزبيرَ بن دَحْمان فانى وجدت لغنائه موقعاً حسناً فى النفوس وكنت أرى الرشيد يتمايل طرباً من غنائه إذ غنّاه .

رَضِيتُ الهوى إذ حل بى متخيِّراً ... نديماً وما غيرى له مَنْ ينادمه

أعاطيه كأس الصبر بينى وبينه ... يقاسِمُنيها مَـــرة وأقاسمه

الشعر لبشّار بن بُرْد والغناء له هَزَج بالوسطى [٤] ثم غنى .

أسرى بخالدة الخيال وما أرى ... شيئاً ألذّ من الخيال الطارق [٥]

أهواكِ فوق هوى النفوس ولم يزل ... مذ بنتِ قلبى كالجَناح الخافق [٦]

الشعر لجرير والغناء لابن عائشة رَمَلٌ بالوُسْطَى ثم غنى .

---

(١) الأغانى ٦ : ١٢ (٢) الأغانى ٦ : ١٩ (٣) الأغانى ١٦ : ٩٢
(٤) الأغانى ١٧ : ٧٣ (٥) العقد الفريد ٣ : ٢٣٦ (٦) الأغانى ٩ : ٥٠

حَيِّيا خَوْلَةَ منى بالسلام دُرَّةَ البحر ومصباحَ الظلام
لا يكن وعدُكِ برقاً خُلَّباً كاذباً يلمع فى عُرْض الغمام
واذكرى الوعد الذى واعدتِنا ليلةَ النصف من الشهر الحرام

الشعر لأعشى هَمَذان والغناء لاحمد النصيبىّ ولحنه من القدر الأوسط من الثقيل الأول باطلاق الوتر فى مجرى البنصر وعروضه من الرَّمَل [١] فأجاد فى هذا الصوت الأجادة التامة حتي ليس فى المغنين من يقاربه بلحن الثقيل .

ثم تعاقب المغنون على طرح الأصوات فى نوباتهم فلم أستحسن منها إلاّ صوتاً لَعَبْثَر صنعه فى بيتين لابن الدُّمَيْنَة [٢]

وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى على كبدى من خشيةٍ أنْ تَصَدَّعا
وليست عشيّاتُ الحِمَى برواجع عليكَ ولكن خلِّ عينيكَ تدمعا [٣]

ولحناً واحداً صنعه فى شعر وضاح اليمن .

إنّ الوُشاة إذا أتو كِ تَنَصَّحوا ونَهَوْكِ عنْ
إنّى تهيجنى اليـ ـكِ حمامتان على فَنَن
فاسقى خليلكَ من شرا ب لم يكدِره الدَّرَن
الريحُ ريح سَفَرْجَل والطعمُ طعمُ سُلافِ دَنّ

حتى إذا ظن فى نفسه اقتداراً على الصناعة وأراد أن يعارض اسحق باللحن الذى صنعه فى شعر العباس بن الأحنف وهو .

لاجزى الله دمعَ عينى خيراً وجزى الله كلَّ خير لسانى

---

(١) الاغانى ٥ : ١٤٦ (٢) الاغانى (٣) العقد الفريد ٣ : ٢٤٠

كنتُ مثل الكتاب أخفاه طَيٌّ فاستدلوا عليه بالعنوان

سُقِط فى يده وقصّر دون بلوغ المرام . وكان فى جملة المغنين رجل أعمى يقال له أبو زَكّار وهو شديد التعصب للغناء القديم وكان آخرَ من غنى فى ذلك اليوم بدأ بلحن صنعه فى هذا البيت .

يا راكب العِيس التى وفدت إلى البلد الحرام

وثنّى بآخر لابراهيم الموصلى صنعه فى بيتين لعمر بن أبى ربيعة [١] وهما قوله .

ليت هندا أنجزتنا ما تَعِدْ وشفت أنفسَنا مما تجد

واستبدّت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

فلم تظهر له بهما صناعة إلى أن تغنّى بهذه الأبيات .

يأيها القلب المطيعُ الهوى أنّى اعتراك الطربُ النازحُ

تذكرُ جُمْلا فاذا ما نأت طار شَعاعاً قلبك الطامح

هلا تناهيت وكنت امرأ يزجُرك المرشد والناصح

مالك لا تترك جهلَ الصبا وقد علاك الشَّمَط الواضح

ولحنُها ثانى ثقيل بالسبابة فى مجرى الوُسْطَى [٢] فأحسن كلَّ الاحسان فى تأدية النغم كأنّه لا تظهر صناعته إلا بغناء مافى معناه زجر وتذكير من الأبيات [٣]

---

(١) الأغانى ٦ : ١٥٠ وذكر ابن خلدون فى المقدمة أنه غنى الرشيد بهذين البيتين ليوعر صدره على البرامكة . وقد أنكر ذلك ١٥ (٢) الاغانى ولكن لم يذكر لابى زكار صناعة بها (٣) انما نسبت لأبى زكار صناعة النغم المحزن لأنى طالما ذكرت البيتين اللذين غنى بهما جعفراً قبل أن ينكبه الرشيد وهما قوله

ولما تولى النهارُ أومأ الرشيد إلى المغنين بأن يحلُّوا صفوفهم ، ثم فرّق فيهم الجوائز بقدر أهليتهم من الصناعة ، فمن مصيب ألفَ دينار ومن مصيب خمسمائة ، ومن مصيب دون ذلك . ثم فرّق فيمن يتخلل الغناء بضرب المعازف دون ما فرقه على المغنين من المال ، فأصاب الجوائزَ السنية أربعةٌ منهم وهم منصور زَلْزَل [١] وكان يضرب على عود من العيدان التى صنعها مُعارِضَةً لعيدان الفُرْس وهى عجب من العجب ، [٢] وكأنما تُزلزل المجالس بحسن نغمها ، [٣] وبُرْصوم الزامر [٤] وهو أحسن الناس زمراً بناي ، كان إذا زَمَر فيه يحدِثُ النّغم الذى يريده مع صحة المقاطيع والتقسيمات حتى كأنه ينطق بين يديه بلسان آدمىّ . وجعفر الطبّال وهو يحسن التوقيع على الطبل [٥] وكان يضرب بالكُوبة [٦] فى ذلك اليوم ، ورابعهم الغريض وهو مشهور بضرب العود والتوقيع بالقضيب والنقر على الدُّف . [٧] ولما انصرف المغنون لم يبقَ فى مجلس الخليفة إلاّ إسحق النديم وجعفر والفضل من البرامكة ، وقد طلع علينا من هواء دِجلة فى ذلك الوقت نسيمٌ طابت النفوس به انتعاشاً بعد هاجرة أصابنا بالنهار حرُّها ، حتى إذا رفعت أستار الطيقان التى تطل على حدائق القصر وقعت فى

فلا تبعد فكل فتى سيأتى عليه الموت يطرق أو يغادى
وكل ذخيرة لا بد يوماً وان كرمت تصير الى نفاد

فلم تتمثل لى صناعته الا بمثل ما ذكرته لك بلسان الراوية (١) ذكر صاحب العقد ٣ : ٢٣٩ أنه مغن من الطبقة الثانية ولكنه قال بعد ذلك انه كان أضرب الناس للوتر (٢) الأغانى ٥ : ٢٤ (٣) ابن خلكان ١ : ١١ (٤) ذكره الأغانى ٦ : ١٢ فى غير موضع والعقد الفريد ٣ : ٢٥٩ وقال انه كان مغنياً (٥) الأغانى ١٤ : ٥٤ (٦) ذكرها القناوى ٢١ (٧) الاغانى ٢ : ١٢٩

موضعنا شمس الغروب وهى ترسل علينا شعاعاً متناثراً كالذهب يهتز فى نواحى المجلس باهتزاز الغصن الرطيب تحت خطرات النسيم حتى كأن القصر يرقُص بنا سروراً بأهله وعزةً بمقامهم الرفيع .

هذا ما أذكره لك عن المغنين وليس هو إلاّ المحفوظَ فى ذهنى من غنائهم مجرداً عن بيان طرائقهم فى الأصوات وصناعتهم فى وضع النغمات ، لأنى لو أخذتُ فى ذلك ما وعتهُ الصحف الكثيرة الواسعةُ [١] . وقد وقع تدوين هذه الرسالة فى غُرَّة المحرم من السنة الخامسة والثمانين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرَّفة على صاحبها أشرف الصلاة وأزكى التحية

الرسالة السابعة

فى ذكر آداب العرب

هذه رسالة إليك أفردها لذكر آداب العرب وعلومهم ، فقد طالما شهدت مجالسهم بدار الرشيد فى محاورة فقهاء ، وحَلَق علماء ، ومنادمة أدباء . ومناظرة جدليِّين ، ومراواة رُواة ، ونُوَب مغنين . [٢] وذلك من الحظوظ التى لا يتفق مثلُها لغيرى من المتصلين بالملوك ، لأنى كنت أقرب الناس مكاناً إلى الرشيد تحت ظل البرامكة ، وكنت من الحُظْوة لديه بحيث

---

(١) راجع كتاب الأغانى ان شئت فيها مطولا (٢) واحدها نوبة وقد ذكرها الاغانى ٢٠ : ٦٤ بمعنى الاسم من المناوبة والناس اليوم يطلقون اسم النوبة على ضرب المعازف وآلات الطرب